

مذهب "تين" فى النقد

نجد فى الرجال الأبيض والأسود، والأصفر والأحمر، ونجد فيهم الذكى والغبى، ونجد النشيط والخامل. ونجد اختلافات كثيرة فى الطباع والعادات، وطرق الفهم، والتصوير والإدراك والعقائد، ونظام العيش فى الحياة والاجتماع، وغير ذلك. ويقول العلماء والباحثون إن لذلك أسباباً ثلاثة: الجنس والبيئة، والزمن. وقد نوه بشىء من هذا ابن خلدون فى "مقدمته" وسبب اختلاف الأخلاق والألوان إلى طبيعة الإقليم. ونسب إلى السودان الخفة والطيش والميل إلى الطرب، ووصفهم بالحمق، وغير ذلك مما سببه طبيعة الأقاليم الحارة. وفى كلام ابن خلدون عن العرب وأخلاقهم العمرانية والاجتماعية، ما يدل على أنه يقصد بذلك خواص الجنس وأثره فى الأمم، واختلاف الأمم بعضها عن بعض، بسبب اختلاف الأجناس والبيئات.

هذا أساس مذهب تين "Taine" العالم النقاد الفرنسى (١).

(١) هو عالم فيلسوف وأديب ناقد فرنساوى من أكبر علماء القرن التاسع عشر فى فرنسا ولد سنة ١٨٢٨ ومات سنة ١٨٩٣ وهو ثالث ثلاثة من أصحاب المذهب الإيجابى (Positivis-me) القائلين أنه لا توجد معلومات صحيحة يصح الجزم بها إلا إذا قام عليها برهان علمى. وأن كل شىء فى الوجود يرجع إلى سبب علمى معقول. وأنكروا الغيبيات (ما وراء المادة) والأول والثانى من هؤلاء الثلاث أو غست كنت (Auguste Comte) وأرنست رنان (E. Renan) وقد انتشر مذهبهم فى فرنسا وغيرها انتشاراً عظيماً، وأثر فى العلم والأدب والاجتماع والفلسفة إلى آخر القرن السابع عشر، ولا يزال له تلاميذ وأتباع. وسنشرح مذهب تين الفلسفى شرحاً موجزاً لتتوصل به إلى الكلام على أثر فلسفته فى الأدب ومذهبه فى النقد.

يقول تين: "الرجل ثمرة من ثمرات البيئة التي ولد وتربى فيها، كالشجرة تنمى فى الأرض التى نبت فيها أصلها. وأنه يمكن أن ترجع جميع الأسباب التى يكون الرجل إلى ثلاثة أصلية: الجنس والبيئة الطبيعية والاجتماعية ثم الزمن الذى تكونت فيه حياته العقلية. قال: "ولا يمكن معرفة الشخص إلا إذا وقف الإنسان على هذه الأشياء، لأنها الوسائل الثلاث اللازمة لمعرفة". وكل طرق تين فى البحث على هذه الأصول. وطريقته هذه من أهم الطرق وأنفعها، لأنها تحمل الناقد على دراسة ووصف الأمة التى فيها نشأ الكاتب، وإلى البلد الذى عاش فيه، والمدنية التى تأثر بها.

وأصل مذهب تين بناء الأحوال النفسية، من فكر وإرادة، وقوة وضعف فى الرأى، على أسباب جسمية. أى على ما يسمونه الآن "علم وظائف الأعضاء". لأنه يرى أن جميع الأفكار، والإحساسات، متصلة اتصالاً تاماً بحركة الأعصاب. وعنده أن الوسائل إلى معرفة الحقائق، هى الحواس والإلهامات، وما عدا ذلك كذب وافتراء، مما لا يصح أن يهتم به العلماء. فكانت طريقته علمية صرفة، فأراد أن يدخل الأدب والبلاغة فى هذه الدائرة العلمية، وأن يجعلها من العلوم الاجتماعية. وإذا كان يبنى مذهبه على التجارب العلمية، أراد أن يجعل الأدب والبلاغة إحدى هذه التجارب، ليتوصل بها إلى الحكم على الأفراد والمجتمع - كما أراد قبله "سنت بوف" أن يجعل دراسة البلاغة كتاريخ طبعى للأفكار والعقول - ولأن هذه الحوادث والأعمال التى تمر فى المجتمع وتملأ البلاغات، هى التى يستمد منها الكتاب والشعراء معلوماتهم وأفكارهم. قال تين: "..... يجب أن يكون أساس التاريخ "التحليل" العلمى للنفوس، وأن ما يفعله المؤرخ لإظهار الحوادث

الماضية وإيضاحها يفعله الكاتب والقصاص لإيضاح الحوادث الحاضرة . . . إذ ليس الضرر في الجرى وراء الأحلام فقط، أو في ترك النفس تسبح في الخيالات، ولكنه أيضاً فيما ليس محققاً، ولو كان محتمل الوقوع. لأن المخ خلق لحفظ الحقائق، كما أن البصر خلق لإدراك المبصرات. إدراكاً واضحاً. ومتى اهتمت العقول بغير الحقائق، دبت فيها الأمراض ديبياً، كالعين تضطرب عند اضطراب الأشياء التي تراها فالحقائق هي سلامة العقول".

وبناء على هذا المذهب لم يعتقد تين بغير أثر الحواس، وعنده أن كل موجود عبارة عن جزء من سلسلة حركات وإحساسات.

هذه الطريقة العلمية البحتة، المبنية على المشاهدات والتجارب، هي التي بنى عليها تين مذهبه في نقد الأدب والبلاغة. لأن كل نقد عنده عبارة عن ملاحظات نفسية (بسيكولوجية) علمية. إذ البلاغة أثر الاجتماع، ونتيجة الأسباب الثلاثة التي ذكرناها. أي أن الأدب والبلاغة على رأى تين، نتيجة لازمة لتلك الأسباب الثلاثة التي هي الجنس والبيئة والزمن. فكان من غرض تين أن يؤسس مذهبه في النقد الأدبي على قواعد ثابتة، ويجعله علماً من العلوم وأراد أن يبينه على الأسباب الطبيعية والاجتماعية الثابتة، ويحكم على ذلك بناء على ما في الاجتماع. إذ لا يمكن في نظهر معرفة الإنسان إلا بمعرفة هذه الأسباب الثلاثة. ولم يكن غرض تين أن يقرأ الكتب لنفسها، بل كانت دراسة الكتب لديه وسيلة لمعرفة أحوال الأمم، فهي بمثابة مقياس "لجنس نبض" الأمم والشعوب^(١).

(١) وهذا خلاف مذهب سنت بوف الذي كان من غرضه أن يعرف أمزجة الأشخاص وخواصهم الذاتية من كتاباتهم.

لا شك أن الإنسان ثمرة البيئة والزمن والجنس . ولكن هذه أسباب عامة، يندمج فيها أكثر من الأسباب الأخرى، وليست وحدها تؤثر في نفس الشخص وتربيته. هنالك حوادث خاصة، وأحوال نفسية، واستعدادات فطرية، وأمراض عقلية وعصبية . . . وهناك قوة وضعف في الجسم والعقل، وفي التصور والخيال. وهناك أحوال كثيرة لا تعرف إلا بدراسة الشخص نفسه منفرداً، أو بعيداً عن كل المؤثرات العامة الأخرى. كل ذلك يجب اعتباره والرجوع إليه في "تحليل" نفوس الأشخاص وآثارهم العقلية والكتابية. وإنما مثل من يحكم على الشخص بمجموع ما يحيط به وباندماجه مع غيره، كمثل الطبيب، يمتحن الجسم كله ليتوصل بذلك إلى الحكم على عضو خاص، بدون نظر إلى العوارض الخاصة بذلك العضو. نجد في الأمة الواحدة، وفي البلد الواحد، وفي الأسرة الواحدة وفي البيت الواحد، عقولا مختلفة وأفكاراً مختلفة، وأميالا وأهواء مختلفة، فكيف نفسر ذلك على طريقة تين؟ الاختلافات الظاهرة في الخلق بين أخوين من طول وقصر، وبياض وسمرة، ونحافة وبدانة، واعتدال واعوجاج، توجد بنفسها في الأخلاق من حمق ورزانة، وحلم وطيش. وتوجد في أثر العقول والأفكار، من ذكاء وغباوة، وقوة في الإدراك، وضعف في التصور. ومن هنا كانت الاختلافات العظيمة بين الأفراد في الحكم والإدراك والمبادئ والعقائد وغيرها. الحق واحد لا يتغير، ولكن الخلاف في طرق الإدراك، وفي النفوس واستعدادها لقبوله. فلا بد من مراعاة الأسباب الخاصة في معرفة الشخص، أكثر من الأسباب العامة في تكوين نفسه وإدراك حقيقتها.

من أجل ذلك يمكن أن نعتبر مباحث تين كمقدمات عامة لمعرفة الأشخاص، كما لاحظ ذلك أحد النقاد، وقال: إن هذه الطريقة واضحة في

تفسير الأحوال العامة، كالحكم على شعب أو أمة بأجمعها، كما فعل تين فى كتابه "تاريخ بلاغة الإنكليز" إذ يصح أن يوجد فى هذا الكتاب أدلة صحيحة واضحة فى الحكم على الجنس السكسونى ومميزاته. ولكننا إذا رجعنا إليه وهو يبحث أو يدرس أفراداً خاصة، وجدنا أن الأوصاف التى استنتجها يصح أن تنطبق على غيرها من جنس آخر وبيئة أخرى.

هذه الطريقة فى النقد هى نتيجة فلسفة تين الإيجابية، ونتيجة أفكاره المذهبية، المبنية على مذهب علمى ثابت، وقواعد ثابتة. وهى نتيجة انتشار مذهب أوغست كونت وأتباعه. فمذهب تين الأدبى هو أثر مذهبه العلمى الفلسفى، مبنى على صلة الأدب بالفلسفة والعلوم، وعلى تسرب المبادئ العلمية إلى الأدب والبلاغة، وأن البلاغة أثر من آثار العلوم، ليست عبارة عن خيالات وتشبيهات فقط، بل هى مجموع أفكار الإنسان ونتائج العقول والقرائح.

ولو أردنا أن نشرح مذهب تين بتفصيل أوسع لطلال بنا البحث، وربما عاد علينا ذلك بالملل، لأن الرجل غير معروف عندنا، ولأننا لم نتعود اندماج الأدب فى الفلسفة، ولأن مذهبه مذهب علمى جاف لا يسوغ لنا قبوله.
